تأملات في تسعة نماذج من الحكمة الصوفية المبكِّرة

أديب نايف ذياب[1]

مقدمة

الحكمة الصوفية المبكِّرة، التي أعالج نماذج منتخبة منها هنا، لا تندرج في الحكمة التي يقصدها ابن رشد في رسالته الشهيرة: "فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتِّصال". فابن رشد يقصد بالحكمة الفلسفة اليونانية كما تمثَّلها وفهِمَها (وأضاف إليها مباحث قليلة) مفكِّرو الإسلام؛ كالفارابي، وابن سينا، وابن رشد نفسه. فالحكمة الصوفية المقصودة في هذه الدراسة، هي أقرب ما تكون إلى الطرف الثاني من طرفي المقاربة الماثلة في عنوان رسالة ابن رشد؛ أي الشريعة؛ إذ إنَّنا عندما نتأمل الحكمة الصوفية المبكِّرة بعمق، نكتشف أنَّها تستمدُّ نسْغها الأساسي من القرآن الكريم والسنة الشريفة.

في هذه الحكمة يندرج، على أي حال، مجموع الأقوال الموجزة الغامضة، التي تراوغ الفهم أحياناً، وتُلقي ضوءاً كاشفاً على مكنونات الوجدان في أحيان أخرى. وتحضر هذه الحكمة في الوعي محاولات تسْبُرُ عناصر الإيمان، بل وتكشف عن أعماق النفس الإنسانية وما يجيش بها من هواجس وأشواق. ومن شأن هذه الحكمة أيضا أن تبيِّن أهمية الأخلاق وضرورتها لحياة المؤمنين وتيسير شؤون مجتمعهم.

(1) دكتوراه في فلسفة التصوف، جامعة كمبردج (u.k). أستاذ سابق في قسم الفلسفة، الجامعة الأردنية.

أولاً: بدايات التصوف الإسلامي ومعنى الحكمة الصوفية وخصائصها

تتخذ الحكمة الصوفية نسيجها اللغوي من عبارات مضغوطة مكثَّفة، تقتضي عادةً تأملاتٍ وتفسيراً للمفارقات الماثلة فيها؛ أي تقتضي تفسيراً للتعارض الظاهر في بعض جوانبها. وقد افْتُتِن مؤرخو التصوف بهذه الحكمة، فجمعوها من غير أن يُبدوا بخصوصها تفسيراً أو تأويلاً باستثناء تعليقاتٍ عابرة من جانبهم أحياناً، ومن شأن هذه التعليقات أن تُضفي على الحكمة غلالة من الغموض في كثير من الأحيان.

وللتعرف على الحكمة الصوفية لا بدّ من التعرف على التصوف والحكمة وخصائص الحكمة الصوفية، وبيان ذلك الآتي:

1 - بدايات التصوف

في الإمكان أن نحدِّد البداية الحاسمة للتصوف، بِعَدِّ سلسلة طويلة من الزهَّاد ضمن الصحابة والتابعين وتابعيهم؛ إذ نحدِّدها بنحو 130هـ، حينما هاجر إبراهيم بن أدهم العِجْلي من مدينة بلخ، التي كانت مزدهرة في تلك الأيام، نابذاً حياة التَّرف واللهو وراء ظهره، آخذاً بممارسة حياة كدْح عَضَلي في مدن ساحل بلاد الشام، وفي مدنه الداخلية وقراه. وهناك نجده يبتدع حياةً لا تعترف بالملْكية الشخصية له ولأصدقائه الذين أخلصوا له الود. وكذلك نجد المؤرِّخين ينسبون لإبراهيم بن أدهم إشاراتٍ عدّوها إرهاصاتِ الكلام في الحب الإلهي. وهذا الأمر علاماتٌ فارقة للتصوف امتاز به عن منحى الزُّهاد السابقين عليه.

أما المراجع القديمة التي أرَّخت للتصوُّف في القرون الثلاثة الأولى التي تنتهي في 400هـ تقريباً، وروت أقوال الأساتذة البارزين في حركة التصوف آنذاك، فقد ظهرَتْ فيما بين 370هـ-470هـ. وهي تحديداً: اللُّمع لأبي نصر السَّراج الطوسي، والتعرُّف لأبي بكر الكلاباذي، وطبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السُّلمي، وحِلية الأولياء لأبي نُعيم الأصفهاني، وقوت القلوب لأبي طالب المكي، وكشف المحجوب لأبي الحسن الهجويري، والكتاب الأخير كُتب أصلاً بالفارسية، وقد ترجمتْهُ حديثاً إلى العربية الدكتورة إسعاد قنديل.

2 - معنى الحكمة والحكمة الصوفية

كي يتضح معنى الحكمة الصوفية فتكشف عن مراميها العميقة، يترتب علينا أن نتساءل: ما الصفات التي يتأهَّل من خلالها الإنسان فيستحق أن يوصفُ بأنه إنسانٌ حكيم؟ فنحن حين نتبين مؤهلات المرء الحكيم يسهل علينا أن نشتق من ذلك خصائص "المصدر" وهو الحكمة، وهنا نسترشد بآيات القرآن الكريم التي تصف المؤمن الحق أنه يُمسك نفسه عن الانصياع للهوى وإغراءات الضلال ويتَّبع الحق والعدل والصبر عند التعامل مع الناس. فنقول: الحكيم هو الإنسان المؤمن الذي يتخذ الرويَّة والأناة في المعاملات وسائر الشؤون، أسلوبَ حياة؛ فهو لا يندفع وراء أهوائه ورغائبه الآنية، بانقياد أعمى يُمليه الغضب مثلاً، وإنما يتبصَّرُ في عواقب ما يتَّخذه من أقوال ومواقف. الإنسان الحكيم يشق طريقه في الحياة بصبْر ونُبْل وتواضع ينمُّ عن متانة الإيمان والاحتمال في نفسه، وعن توخِّيه النزاهة والعدل في تعامله مع الآخرين وفي تعامُلِه مع نفسه، ومع عشيرته وأهله.

والحكيمُ هو الإنسان الكِّيس الورِع الذي يَلْتزم تقوى الله في كل مواقفه وخياراته، ويكون على أُهْبة الاستعداد لمواجهة مسؤوليته عن عواقب أفعاله، فيْتبع السيئةَ الحسنةَ في حالات التسرُّع والاندفاع واجتراح ما هو سيىء ومؤذٍ في حق الآخرين. وهو الذي يتعامل مع الناس-مهما تكن طبيعة مُجابهتهم له- بالدماثة والخُلُق الحسن الذي لا ينزلق إلى مستوى النِّفاق، ولا يخشى شيئاً عند الجهر بالحقيقة باللطف اللازم والنصيحة. وهذا ما يوصي به حديث نبوي مشهور، وهو حكمة مُقْنعة في حد ذاته. قال الرسول، عليه الصلاة والسلام: " اتَّقِ الله حيثما كنت، وأتْبع السيئةَ الحسنة تمحها، وخالق الناس بخُلُقٍ حسن."[2] وهذا الحديث يوجز وصايا كثيرة ورَدت في القرآن الكريم. حسبنا أن نذكر هنا أن الوصية التي وردت في وسط الحديث هي تأكيد للآية الكريمة: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: 114].

(2) رواه الترمذي وقال: حسن صحيح. وهو مما اختاره الإمام النووي في الأربعين، رقم 18.

نتنقل الآن إلى المعنى المقصود من لفظ (الحكمة) وهو من مفردات القرآن الكريم. في دراسة سابقة لي[3] كنت قد تأمَّلت ما ذهب إليه بعض المفسِّرين في شرح الآية الكريمة: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: 269]. واستعرضْتُ تفسير ابن عطية وتفسير الإمام محمد عبده بخصوص هذه الآية. ثم انتهيتُ إلى القول: "في الإمكان دَمْج ما استخلصناه سابقاً من تفسير ابن عطية في الوجيز مع ما ورد من تفسير يُنسبُ للإمام محمد عبده في المنار بخصوص الحكمة بعبارة موجزة توحِّد فيما بينهما: الحكمة هي حقائق الدين العميقة ومقاصده التي تُستنبط بالعقل من القرآن الكريم والسنة الشريفة. فيكون الإنسان، باتِّباعه تلك الحقائق والمقاصد، مُخلصاً مستقيماً في أقواله وأفعاله، نابذاً للمعاصي والأوهام الباطلة. وكل قولٍ مُحْكم يستند إلى المصدريْن السابقيْن ونتوسَّم فيه إمكانية توجيه الإنسان إلى الرشد والسداد هو حكمة.[4] واستنتاجاً من صفات الإنسان الحكيم التي سبق ذكرها نستطيع أن نضيف هنا أن الحكمة هي استعمال أسلوب الحق والعدل عند التعامل مع الآخرين أيضاً. وكذلك هي انتهاج الرويَّة والأناة في سائر شؤون الحياة.

3 - خصائص الحكمة الصوفية

ومن خلال النماذج التي سنناقشها في هذا البحث سيصير الكلام على خصائص الحكمة الصوفية بعامة ممكناً وقابلاً للفهم أيضاً. فنلاحظ أولاً أن الحكمة الصوفية تختلف عن الحوارية الأفلاطونية، وإنْ كان يصح -أحياناً- أن هذه الحكمة هي في الأصل حوار مُقتضب بين أحد الأساتذة وبعض مريديه؛ سؤال من المريد وجواب من الأستاذ. ولا يشكل مجموع الحكم الصوفية المبكرة نظاماً فلسفياً شاملاً يسلك جميع المعارف والتأملات وعلوم العصر في صميم بنائه مثلما هي الحال في فلسفة أرسطو، إنما تقتصر الحكَم الصوفية على معالجة أحوال النفس الإنسانية، والنظر في آفاتها؛ كالرياء، وشهوة التملك،

(3) نايف، أديب. "موقف أبي سليمان الداراني من الدنيا"، **مجلة المنارة** للبحوث والدراسات، الأردن: جامعة آل البيت، مج13، ع4، تموز 2007م، ص199-224.

(4) المرجع السابق، ص203-206.

وحب الشهرة، والتفكر في مزايا الأخلاق، وتأمل الفضائل؛ كالتواضع، والصدق، والوفاء، والإخلاص، والفتوةً. وتسبر الحكمة الصوفية حقائق الإيمان، وتحذر الإنسان من الاستهانة بمصيره في الآخرة. فإن تخطت هذه المواضيع فإلى مشكلات فرعية من شأنها أن تندرج في الموضوعات الرئيسية. ولا تتوخى الحكمة الصوفية أن تحذو حذو البراهين الكلامية التي يفترض فيها المتكلم المقدمات اللازمة للبرهان، وبعض هذه المقدمات يُقتبس من القرآن الكريم، ويضع المتكلم الاحتمالات الممكنة في الجواب على مسألة ما، ثم يبطل هذه الاحتمالات جميعاً، باستثناء احتمال واحد يعده النتيجة اللازمة عن الحجاج الذي أقامه.

ما سبق أن سقناه من كلام بخصوص الحكمة الصوفية إنما تم بنفي بعض الخصائص عنها. لكن مثل هذا النفي لا يجدي ما لم نتناول طبيعة الحكمة الصوفية في ذاتها، مع إغفال اختلاقها عما يمت إليها بنسب ما. فالحكمة الصوفية أقرب ما تكون إلى الرؤى الأدبية، وإلى الصور الفنية في الشعر بخاصة. وإن سمة الإقناع الماثلة في الحكمة الصوفية إنما تستمد من بساطتها: حكمة "أَخْلِصْ تَخْلُص"، ومن صلتها الوثيقة بالقرآن الكريم والسنة الشريفة. ويتم قبولها المقنع في بعض الأحيان من قوة حضورها في الوعي، فهي أحياناً تزلزل الوجدان وتستحوذ عليه عَنوةً، وكأنما تُبطن دعوةً ملحةً وجاذبية خاصة للقارئ أو السامع كي يتفكر فيما هو عليه سيماؤها أو رمزها الفني؛ وهكذا تجتذب المرء للتأمل في شكلها وصورتها، ومن ثَمَّ يكون توسم تلميحاتها ومراميها.

فإذا تأمّلْنا جملة مواقف الصوفية الأوائل وآدابهم وجدْنا أنَّ كثيراً من أقوالهم تستند إلى القرآن الكريم والسنة الشريفة، فتحضر هذا الأقوال في الوعي وكأنّها امتداد طبيعيّ لهذين الركنيْن. وتتصف تلك الأقوال كذلك بإمكان توجيه المؤمنين إلى السلوك الحصيف وإلى السَّداد. وهذا هو المقصود من الحكمة. وأول تعريف وَصَلنا للتصوُّف وينسب إلى معروف الكرخي[5] (ت200هـ) وهو من الجيل الأول من المتصوفة، كان يتضمَّن معنى الحكمة هذا بشقَّيْه: الاستناد

(5) الكرخي: أحد سادات الصوفية في بغداد، كان أبواه نصرانيين فتركهما، ولما طلبا رجوعه رجع فأسلما. [المحررون]

إلى القرآن والسنة أولاً، والإرشاد إلى السَّداد ثانياً. والتعريفُ، وهو: "التصوُّف هو الأخْذُ بالحقائق واليأس مما في أيدي الخلائق."[6] والمعنى: أن التصوف هو الالتزام التام بأصول الإيمان والاستمساك بالحقائقِ الجوهرية للدين، ونبْذ ما هو زائد على الحاجة من فضول المكاسب والـمُتع الدنيويّة التي يتنافس في طلبها أغلبية الناس عادة، فالاكتفاء بما هو ضروري لا غنى عنه لمعيشة الإنسان.

ثانياً: نماذج من الحكم الصوفية

سنكتفي في هذا البحث بتسعة نماذج من الحكمة الصوفية على سبيل المثال، ويمكن تقسيمها بحسب موضوعاتها إلى ثلاثة أقسام: الأول: يتعلق بمصير الإنسان في الحكمة الصوفية، وفيه أربع حكم. الثاني: يتعلق بالقناعة والتواضع في الحكمة الصوفية، وفيه ثلاث حكم. الثالث: يتعلق بدفع الهم والغم في الحكمة الصوفية، وفيه حكمتان. وبيان ذلك الآتي:

1 – مصير الإنسان في الحكمة الصوفية

أ – قال أبو عبد الرحمن السُّلمي: " كان معروف الكرخي يعاتب نفسه ويقول: يا مسكين؛ كم تبكي وتندبُ؟! أَخْلِص تخْلُص." [7]

يقدم هذا القول، على بساطته، نموذجاً تاماً للحكمة الصوفية المبكِّرة التي نقصد بسْط مُنْتخباتٍ منها والكشف عن دلالتها؛ إذْ يشير معروف الكَرْخي هنا إلى أنَّ الإخلاص للحقِّ تعالى، بالامتثال الجاد للتكليفات الإلهيّة هو طريق الخلاص الوحيد للإنسان من الهم ومن القلق الروحي الذي يعتُور وِجدانه حين يُعْرض عن الذكر الإلهي. والحق أن فرضية "أَخْلِص تخلُص" هي حكمةٌ نافعةٌ، ليس في نطاق صِلة الإنسان المؤمن بالحق تعالى فحسب، وإنما هي حكمة مُجْدية فيما يتّصل بفعاليات المرء الأخرى، في مستواها الأُفُقيّ؛ أي في تعامله اليومي مع أفراد مجتمعه الخاص. فإذا كان المرء مُخْلصاً في معاملاته مع الآخرين، مُقْبلاً

(6) القُشيري، عبد الكريم بن هوازن. **الرسالة القشيرية**، بيروت: دار الكتب العلمية، 1998م، ص313.

(7) السُّلمي، أبو عبد الرحمن. **طبقات الصوفية**، تحقيق: نور الدين شريبة، حلب: دار الكتاب النفيس، ط2، 1986م، ص89.

عليها بالجد اللازم والنية الحَسَنة، باذلاً أقصى الجهد في إنجازها أو أدائها، فإنه لن يكون عرضةً لِلَوْم مَن يتعامل معهم، وهكذا يتحرر هنا من سماع عِتابهم، أو من تأنيبهم إذا كان مرؤوساً لهم، فليس ثمة مِن تقصيرٍ من جانبه. فإذا كان المرء موظفاً في مؤسسة ما، فلن يكون مضطراً، في هذه الحالة، إلى مداراة رئيسه وإزجاء النفاق له.

ب – بيَّن سهل بن عبد الله التُّسْتَري(8) (ت283 هـ)، شأن اليقظة الروحية حين تتأخر عن أوانها كثيراً؛ كأن تطرأُ في وعي المحتضِر حين يُحْدق به الموت عن كثب. وهنا تكون رغبة الإنسان الأخيرة في أن يُغيِّر اتجاه حياته. ولكن هيهات؛ فهي صحوة مُخْفقة، ويَقظة لن تجدي شيئاً. يقول سهل: "الناس نيام، فإذا انتبهوا نَدِموا، وإذا ندموا لم تنفعْهم ندامتُهم."(9) فإذا تساءلنا في هذا السياق: وهل هناك ندامة نافعة أصلاً؟ فالجواب: نعم، هناك ندامة نافعة ليس لأنّها تدور في بال الإنسان وهو في شرخ الشباب مَثَلاً؛ إذْ يذهبُ به الظن إذَّاك أنّ سني العمر تمتد رحبةً أمامه. وإنما تكون النَّدامةُ نافعة إذا قادتْهُ في الواقع إلى تغيير أسلوب حياته بغض النظر عن أوان حدوثها؛ إنما قبل الاحتضار طبعاً، فتُفضي به إلى اتخاذ منحى نبيل مُخلص يُرضي الحق تعالى.

ت – ينبِّهنا مظفَّر القرميسيني[10] إلى أن عمر الشخص الواحد منا مقيَّد بفرصة واحدة هي أجلُهُ المحدود. ونعرف جميعاً أن حياة الإنسان هشَّة، وأن الفترة التي يتمتع فيها بالعافية التامة على العموم قصيرة الأمَد، وكذلك مرحلة الشباب سريعة العُبور. ولا سبيل إلى التعويض عن هذه الحياة بحياة أخرى، أو حتّى بجزء ضئيل من حياة ثانية نعُود فيها إلى الدنيا. ويترتّب على الإنسان، إذن، أن يغتنم هذه الحياة، وهي في حقيقة الأمر فرصةٌ واحدة محدودة من كل جانب، تغصُّ بالمكابدة والعناء، والانشغالات الدنيوية التي تنهب أيام العمر

(8) التستري: أحد أئمة القوم، لم يكن له نظرية في المعاملات والورع في وقته، وكان صاحب كرامات. [المحررون]

(9) السُّلمي، **طبقات الصوفية**، مرجع سابق، ص207.

(10) القرميسيني، إبراهيم بن شيبان. من المتصوفين والزهاد، توفي سنة 337هـ.

وتستهلكها. ويترتب على الإنسان أن ينهض مع ذلك بأعمال صالحاتٍ تُحسبُ (له) في ميزان الحسنات؛ ويترتَّب عليه أيضاً أن ينأى بجانبه عن الوقوع في المعاصي والآثام التي تُحْسب (عليه) فيجزى بها. قال مظفَّر: "ليس لك من عمرك إلا نفسٌ واحدة، فإن لم تُفْنها فيما لك، فلا تُفْنها فيما عليك."[11]

ويقصد مظفر أن المؤمن إن عجز في جعل حياته عامرةً بأفعال الخير التي تنفع الذات وتقدم خدمة للمجتمع، يترتب عليه، عوضاً عن ذلك، أن لا يذهب إلى الحد النقيض أو المغاير وهو: اقتراف الخطيئة أو الآثام التي تعقِّب في خاتمة المطاف ندماً في النفس وكآبة. فالحدّ الأدنى المطلوب من الإنسان في هذه الحالة هو أن يمتنع عن اجتراح المعاصي والرذائل. وإلى مثل هذا الموقف يذهب بشر بن الحارث الحافي[12] (ت227 هـ)؛ إذ يروى عنه أنه قال: "إذا لم تُطع فلا تعصِ."[13]

ث – جهر معروف الكرخي لبعض مريديه بوصية، تُبين أنه ليس من جدوى في طلب الإنسان الرجوع إلى الحياة الدنيا عند دنو الأجل. قال معروف: "استعد. إذا جاءك الموت لا تسأل الرجعة." والمعنى: لا تطلب من الحق تعالى أن يرجعك إلى هذه الحياة؛ إذ لا دنيا أبداً بعد الخروج منها بالموت، وهذه المسألة محسومة على نحو قاطع في البلاغ الإلهي، وليس هناك إشارة في القرآن الكريم إلى أن الرجعة التي يدعي المرء فيها أنه سيعوض ما فاته وما قصّر فيه من أعمال وعبادات، فيجبر كسوراً وشروخاً أحدثتها هفواته السابقة في حياته الأولى.... أقول: ليس هناك من إشارة إلى أن مثل هذه الرجعة ممكنة، بل ثمة آيات تبين بلا أدنى لَبْس أن مثل هذه الرجعة لن تُتاح لأحد. ونلاحظ هنا أن الجملة الثانية من وصية معروف تحدد معنى الجملة الأولى فيها، وهي "استعد." "استعد" هنا لا تعني وقفة التهيؤ التي يتخذها الجنود عند سماع صوت آمرهم يجهر بهذه

(11) السُّلمي، **طبقات الصوفية**، مرجع سابق، ص398.

(12) كان شاطراً (سارقاً) في بدايته، ثم وجد رقعة فيها اسم الله تعالى في حمام، فرفعها وطيبها وأكرمها، فأكرمه الله بالتوبة والصلاح، وصار علماً من أعلام زعماء بغداد وعبادها. [المحررون]

(13) الأصفهاني، أبو نعيم. **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، بيروت: دار الكتب العلمية، 1409هـ، ج8، ص347.

الكلمة؛ وإنما تعني: اتخذ عُدتك من العمل الخيّر النبيل كيما تتأهل للخلاص والنعيم في الحياة الأخرى.

رجعة المرء إلى حياة ثانية في الدنيا غير ممكنة بناءً على ما يدل عليه عدد من الآيات الكريمة. ويحضرني قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ [المؤمنون:99-101].

وإذا تساءلنا عن الآيات الكريمة التي تتراءى وكأنها الأساس الجامع للحكَم الأربع، وهي: أخلص تخلص، والندم عند الاحتضار لا يجدي شيئاً، وعمر الإنسان فرصة واحدة لا تحتمل سوى المبادرة إلى العمل الصالح دون تسويف، واستعد أيها الإنسان، إذا شعرت بقدوم الموت فلا تسأل الرجعة. أقول: الآيات الكريمة التي تحضرني وكأنها الأساس المرجعي لهذه الحِكم الصوفية الأربع جملةً هي آيتان من سورة "الحشر"، هما: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾[الحشر: 18-19]

وبيّنٌ أن المقصود بـ(الذين نسوا الله) فئة الناس الذين نسوا أوامره ونواهيه. أمّا المقصود بمن (أنساهم أنفسهم) الذين لم يكترثوا لمصائرهم يوم القيامة، فلم يقدموا لأنفسهم ما ينفعها في الآخرة. فـ (الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم) هم الذين امتنعوا عن الامتثال لحقوق الله تعالى على العباد، فأنساهم الاهتمام بمصائرهم وجعلهم يغفلون عن حقوق أنفسهم،[14] من الأعمال التي تزكيهم وتؤهِّلهم للثواب العظيم، فتخلفوا إلى رتبة الفسق يخوضون فيها وهم أقرب ما يكونون إلى اللاهين؛ أي اللاعبين غير الموقنين بشيء مما يخص اليوم الآخر.

(14) قارن: ابن جُزي الغرناطي، محمد بن أحمد. **التسهيل لعلوم التنزيل**، تحقيق: عبد الله الخالدي، بيروت، طبعة دار الأرقم، د.ت، مج2، ص362.

2 – التواضع والقناعة في الحكمة الصوفية

أ – سُمع بشر بن الحارث الحافي يقول: "سكون النفس إلى المدح، وقبول المدح لها، أشد عليها من المعاصي."(15) تبدو لنا هذه الحكمة وكأنما موضوعها غير مذكور ضمن كلمات العبارة؛ إذ نستنتج من سياقها أنه الاغترار أو الرضا عن النفس الذي ينشأ عن أخذ الشخص مدح الناس له على محمل التصديق. في هذه الحالة "ينتفخ" الإنسان، على حد تعبير الحكيم الصوفي الفضيل بن عياض(16) (ت187هـ)، وكان بشر بن الحارث قد صحبه مدة قصيرة في شبابه. يشعر المرء حين يصدِّق ما يسمعه من مدح الناس لشخصه أنه ذو أهمية خاصة، فيستحوذ عليه الكِبْر ويختفي خُلُق التواضع من نفسه مع تكرار هذا الأمر؛ فيفقد المرء الرغبة في أن يراجع نفسه أو ينتقدها نقداً ذاتياً واعياً. ومن شأن هذا النقد الذاتي، إذا مارسه الإنسان، أن يُفضي به إلى تحسين مسلكه وتهذيب مواقفه. أما عندما يتقبل المرء المدح من الآخرين، وهم في العادة ينشدون منه تحقيق غَرَض عملي أو مكسب مادي لهم منه، أو ربما يجاملونه من أجل إضفاء الحيوية على مجالسهم، فإنه في هذه الحالة لا يُفصح عن غفلة قد يوصم بها عند معارفه فحسب، وإنما يتصلّب أكثر فأكثر في جملة سلوكه أيضاً. فلا يحرص، بعد ذلك، على تطوير نفسه إلى مستوى أفضل من منظور الأخلاق الرفيعة، وهذا أخطر على المرء من الانغماس في المعاصي والآثام.

ب – ثمة حكمة من مأثورات كثيرة رويت عن أبي سليمان الداراني(17) (ت215هـ) بخصوص الحكمة السادسة: القناعة في الدنيا، وترك التحسّر على ما يفوت الإنسان من شؤونها. عاش هذا المتصوف في داريا، وكانت منذ القرن الأول الهجري قرية معروفة في الغوطة الجنوبية لدمشق، وهي اليوم مدينة

(15) الأصفهاني، **حلية الأولياء**، مرجع سابق، ج8، ص362.

(16) الفضيل بن عياض: كان شاطراً يقطع الطريق وكانت توبته بسبب سماعه قول الله تعالى: (ألم يأن للذين أمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله...) (الحديد:16)، فقال: بلى يارب: قد آن، وتاب وحسنت توبته واشتهر بالزهد والعبادة. [المحررون]

(17) عبد الرحمن بن أحمد وقيل عبد الرحمن بن عطية، زاهد عصره. روى الحديث وروي عنه، كان علماً زاهداً حكيماً. [المحررون]

صغيرة ملاصقة لها. و"الدنيا" عند الصوفية لا تعني الواقع الفيزيائي أو البيئة الطبيعية التي تكتنف البشر الأحياء إنما تعني ما يجري في البيئة الاجتماعية من مكاسب مادية يتنافس البشر في الحصول عليها، وتعني إشباع الشهوات البدنية وإحراز المناصب والشهرة والسطوة والجاه. ونعرف أن أكثرية الناس يتسابقون من أجل تحصيل هذه الأمور، وأن قطاعاً كبيراً من الناس، في كل مجتمع تقريباً يُخفقون في تحقيق أمانيهم الدنيوية فيُضطرون إلى الاكتفاء ببعضها. ونرى من ضمن هؤلاء فئة تلوم الحظ أو إدارة ما في إحدى المؤسسات أو الشركات على هذا الإخفاق. يرى الواحد من هذه الفئة أنه يستحق أكثر من هذه المكاسب التي أحرزها، وقد يرى أن نصيبه من الدنيا كان سعياً عائراً مُحبطاً، فيبالغ في التحسر على ما فاته. إنه ينتمي إلى فئة المهزومين الذين صَرَعَتهم الدنيا عندما دخلوا في مجابهة معها.

فالذين فازوا بالمال الوفير والمناصب الرفيعة والجاه الواسع الأقل عدداً في كل مجتمع. وهؤلاء، فيما يرى أبو سليمان الداراني، مصروعون أيضاً. فهم كالمحرومين من الرفاه سواء بسواء. يقول الرجل في الحكمة: "من صارع الدنيا صرعته،"[18] ولا يستثني أحداً؛ سواء أكان ثرياً أم فقيراً معدماً. لا يستثني أبو سليمان أولئك الذين يظنون أنهم جابهوا الحياة بنباهة فريدة، فتخطوا حظوظهم السيئة وفازوا بما يشتهون من مال ورفاه، بل يعدّ أولئك الأثرياء ضائعين في خضم مكاسبهم، قلقين على الدوام خوفاً من نقصانها. غافلين عن دفع "الحق المعلوم" منها لمستحقيه، أو مترددين في إخراجه أو يخرجونه منقوصاً. أمّا صاحب المنصب الرفيع فيبدو أيضاً قلقاً يتوجس خيفة من فقدان منصبه، فتراه في أغلب الأحيان ينافق رؤساءه، وقد يُمْعن في ذلك من أجل هذه الغاية. أمّا مَن يتمتع بحياة رفاه ناعمة فقلقه قد يكون أكثر بخصوص استمرار الوسائل التي تمكنه من وفرة الرفاه هذه، التي يرتع فيها ويتنعم غافلاً عن أنه سيُسأل عن ذلك يوم القيامة، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [التكاثر: 8].

فإذا توخينا أن نستمد من هذه الحكمة نوراً يرشدنا في مسالك الحياة، ترتب

(18) السلمي، **طبقات الصوفية**، مرجع سابق، ص77.

علينا أن نقتصد قليلاً في تطلعاتنا الدنيوية، وأن لا نتحسَّر على ما يفوتنا منها، فنهتم لهذا السبب ونحزن؛ إذ إن أمراً واحداً حري بنا أن نكترث له ونأسف، وهو هذا العمر المتناقص على الدوام وبلا أدنى هوادة. عمر الواحد منا يضيع منه جزء في كل يوم يمر دون أن نستثمره فيما يرضي الحق تعالى وينفع الخَلق في الوقت نفسه. وما أقوله هنا هو في الحقيقة قبس من حكمة تُنسب إلى السري السقطي[19] (ت251هـ)، يقول فيها: "إن اغتمَمْت لما ينقص من مالك، فابكِ على ما ينقص من عمرك."[20] وهذه هي الحكمة السابعة.

3 – دفع التحسر والغم

آخر حكمتين ننظر فيهما هنا تحفزان الإنسان على نبْذ التحسُّر على الماضي؛ لأن هذا الأمر ينطوي على تضييع الوقت "الحاضر" سدى.

أ – يقول أبو سليمان الداراني: "اجعل ما طَلَبْت من الدنيا فلم تظفر به، بمنزلة ما لم يخطر ببالك ولم تطلبْه."[21] يعتقد المرء أحياناً أن إنجاز شأنٍ من شؤون دنياه، مثل الحصول على شهادة أكاديمية، أو على ترقية في العمل، أو على منصب معين، أو تحقيق النجاح في تجارة ما، أو التوفيق في خِطبة امرأة معيّنة، أمر ضروري لا بدَّ منه، فيعلِّق على مثل هذه الشؤون أهميةً بالغة، لدرجة أنه يُصدم صدمةً شديدة حينما يفشل في تحقيق الأمر الذي ينشده منها. كأنما يتناسى المرء هنا أن سعي البشر بعامة عرضة للإخْفاق في هذه الدار؛ ذلك أن متطلبات الناس تتعارض فيما بينها، وكذلك رغباتهم، فتتفاوت حظوظهم في التوفيق والتآلف. فطلب مثل هذه الأمور يتضَّمن بالطبع احتمالات العثار والفشل. ويترتّب على المرء، إذن، حينما ينشد أمراً من أمور هذه الدنيا أن يدخل احتمال الإخْفاق في حسبانه كي لا يُصدم حينما يُخْفق بالفعل في تحقيق أمرٍ ينشده. ينشد

---

(19) السري السقطي: أبو الحسن، كان أوحد زمانه في الورع وعلوم التوحيد، وهو خال الإمام الجنيد. قال عنه الجنيد: ما رأيت أعبد من خالي، أتي عليه ثمان وسبعون سنة ما رؤي مضطجعاً إلا في علة الموت. [المحررون]

(20) السلمي، **طبقات الصوفية**، مرجع سابق، ص53.

(21) المرجع السابق، ص80.

الإنسان مثلاً شهادةً أكاديميّة، لكنه يفشل في الحصول عليها لظروف معيّنة تعيقه في تكريس وقته للدراسة والبحث، أو لأن قدراته متواضعة لا تمكّنه من إنجاز الشهادة في الوقت المطلوب. وقد يرشح المرء نفسه إلى تسلُّم منصب ما، فيفوز به غيرُه. وقد يخطب فتاةً معيّنة لكنّها ترفضه.

في مجابهة مثل هذه الأمور، يترتب على المرء أن يقر بمحدوديته في القدرة على الإقناع وفي الوسامة، وأنه محدود أيضاً في إبداء اللطف المطلوب واللّباقة؛ وأن يعي أن التوفيق في المسعى ليس أمراً مما يقع تحت سيطرته. لا بدّ للإنسان هنا من الإعراض عن التفكير في الماضي، وإلا وقع فريسة للتحسر على الجدِّ العاثر الذي مُني به. التحسُّر على ما فات الإنسان في الماضي لا يجدي نفعاً، وهو في حقيقة الأمر تضييع للوقت سدى. ليس أمام الانسان خيار هنا سوى أن ينفض أثر الإخفاق عن نفسه، وأن يكون وديعاً معها فلا يُزجي لها لوماً. يترتَّب على الإنسان أن يتناسى ذلك الأمر الذي أخفق فيه، وأن يشرع من جديد في التخطيط لأمر بديل آخر مما يقع ضمن الإمكانيات المتاحة له.

ب – قال يحيى بن معاذ الرازي[22] (ت258 هـ): "جميع الدنيا، من أولها إلى آخرها، لا يُساوي غمَّ ساعة، فكيف تغم عمرك فيها مع قليل يصيبك منها؟!"[23] "فالدنيا" كما يتصورها الصوفية هي جملة المكاسب المادية والمناصب في المؤسسات، والشهرة بين الناس وحيازة النفوذ والسطوة. ولا شك في أن للمكاسب والمتاع الباذخ والمناصب المؤسسية مثل: رئيس، وأمين سر، ووزير، ومدير، ومستشار... سحرَها عند الناس. وللشهرة والسطوة والنفوذ جاذبيتُها وفتنها أيضاً. وبها ينشغل الناس ويهتمون، ويتشهُّونها لأنفسهم ولأبنائهم. وبإزاء هذه المكاسب وتلك المناصب والترف، وللمشهورين والمتنفِّذين، يُبدي الناس أمارات الإجلال والاحترام. ومن أجل هذه الشؤون، تفاعلت اللغات فاستعارت من بعضها بعضاً كلماتٍ تشع بالتقدير والقيمة، واسْتُعملت هذه الكلمات في توصيف أهل الثراء والمناصب والمتنفِّذين والمشهورين.

---

(22) الرازي: الزاهد العارف العابد الواعظ، توفي في نيسابور.

(23) السلمي، **طبقات الصوفية**، مرجع سابق، ص110.

إذ لم يكتفِ عامة الناس بنعت أولئك المرموقين بأنهم أهل السعي الجاد والكفاح المُضني، وإنما تخطُّوا ذلك إلى اشتقاق كلمات أخرى واستعملوها في وصفهم، فهم الروّاد والعصاميون والمبدعون. وعدّهم عامة الناس -أحياناً- في مستوى ظواهر الطبيعة والطفرات الكونية، فهم صانعو الأحداث والتاريخ واستعاروا لهم من السماء لفظ "النجوم" ليدلّوا على مواقعهم النسبية في المجتمع. وأبى الناس، باستثناء المتمردين منهم على المألوف، استعمال كلمات أخرى هي أكثر ملاءمةً، في كثير من الأحيان، لتقويم أولئك اللاهثين في السعي للحصول على المكاسب الدنيويَّة. من هذه الكلمات التي استعملها المتمردون في وصف هؤلاء اللاهثين في سباقهم الدنيوي المحموم: الامتثال والخضوع والانتهازية والنفاق والاستزلام للغير، والإغضاء عن الأخطاء، وتسلُّق القرود على أغصان الشجر، واللعب على الحبال المتوازية.

أحد هؤلاء المتمردين على الآراء المألوفة الشائعة هو الفيلسوف الإسباني الحديث "أونامونو"؛ إذْ قدم لنا مواقف مشاكسة بخصوص كنه الموت والحياة. وهنا ننظر في إحدى صوره الفنية الأخّاذة التي تتناول الفرْق بين الإنسان الطيب والإنسان الشرير (ويقصد بالأخير الانتهازي). هذه الصورة حكمة عميقة تقترب كثيراً، من حيث البنية والمعنى، من الحكمة الصوفية. يقول أونامونو: "يمتاز الإنسان الطيب بثلاث صفاتٍ رئيسية: أولها: أنه إنسان أعزل لا يحميه تكتُّل سياسي أو اجتماعي أو مهني، وهو لهذا مُستباح (الساحة) دوماً. ثانيها: أنه إنسان مسالم لا يخوض المعارك وإنما يتلقَّى الصدمات واللكمات باستمرار، وهو لهذا مهزوم دوماً. وثالثها: أنه إنسان نبيل يلتزم بممارسات نظيفة مشروعة وهو لهذا مضطهد باستمرار. ونقيض الإنسان الطيب ليس الإنسان الشرير، وإنما هو الإنسان الانتهازي الذي يوصف بثلاث صفات أيضاً: أولها أنه إنسان منتمٍ وهو لهذا محمي، وثانيها أنه طموح وهو لهذا عدواني، وثالثها أنه وصوليّ، وهوً لهذا رابحٌ على الدوام."[24]

نعود إلى ما يُسميه الصوفيةُ "حظوظ النفس"؛ أي المكاسب والمناصب

(24) قرأت هذه الشذرة لأونامونو في مرجع ما، ودوَّنتها وطلبت طباعتها، وسهوت عن إثبات المرجع.

ومتاع الرفاه ومباهج الحياة المادية الأخرى، فنلمس أنها، في حقيقة الأمر، شؤون متخارجة مع ذات الإنسان؛ أي ليست جزءاً من صميم ماهيته أو شخصيته؛ إذْ تطرأ عليه هذه الأمور عادةً مع تقدُّمه في مراحل العمر، وتُسبغ على الإنسان مثل الرِّداء، وتُنزع عنه فجأةً أو عَنْوةً في بعض الأحيان. يقول الفيلسوف الهندي رادا كريشنان[25] Radhakrishnan الذي يُفصح عن اتجاه روحي يستند فيه بالطبع إلى تراث مختلف عن تراثنا: "الثروة الحقيقية في أن نكون وليس في أن نمتلك. العقل الحر لا يكون إمَّعياً....ليس في الإمكان أن يقنع الإنسان بمتاع الدنيا والممتلكات... للإنسان مصير آخر هو تحقيق الروح في ذاته."[26]

ويشعر المرء بعد بلوغه الخمسين على العموم بالوحدة تغزو روحه على وجه التدريج، حتى في أثناء مشاركته في جلسةٍ هانئةٍ مع أفراد أسرته الخاصة؛ ذلك أن مسألة الموت والمصير يشكِّلان هاجساً خفيّاً يظهر أحياناً ويتلاشى أحياناً في وعي المرء مع مرور الأيام. ويقترن هذا الهاجس، في أغلب الأحوال، مع تضاؤل مؤشِّرات الصحة والعافية في نفسه وفي بَدَنه شيئاً فشيئاً. وقد يغزو وجدانه غمٌ وكآبة لا يدري عن أسبابهما شيئاً. عند ذلك تهون المكاسب المادية عادةً في نظر الإنسان، وتهون مُتع الدنيا. وتصبحُ أقصى غاية ينشدها المرء هي العافية أو بعض العافية الممكن. كما يتمنى في هذه الحالة بضع سنين أخرى يتَّسع فيها العمر، فيستدرك فيها بعض ما فاته وما ضيَّعهُ في الماضي وهو ماضٍ في خضم السعي الدؤوب من أجل تحصيل ما يسميه المتصوفة "فضول" العيش، أقصد ما نسميه اليوم "الكماليات"، وهي، خلافاً لما يظن كثير من الناس، غير ضرورية لاستمرار الحياة.

خاتمة

عالجت في هذا البحث نماذج من الحكمة الصوفية المبكِّرة مما أُثِر عن: معروف الكرْخي، وسهل التسْتري، ومظفَّر القرميسيني، وبشر الحافي، والداراني،

(25) أستاذ فلسفة تولى عدة مناصب علمية وسياسية، إلى أن انتخب رئيساً لجمهورية الهند عام 1962م، وبعد 5 سنوات ترك الرئاسة وعاد للتدريس. توفي سنة 1975م.

(26) رولد. **مقدمة في نظرية المعرفة**، ترجمة وتعليق: أديب نايف ذياب، عمان، 2003م، ص64.

ويحيى بن معاذ الرازي. فاستنتجت من مناقشة أربع حكم منها في البدء الخصائص العامة للحكمة الصوفية. ثم بيَّنت أن هذه الحكمة تستمد تلميحاتها من معانٍ ذكرت في القرآن الكريم والسنَّة.

وبيّنت أيضاً أنها، مع بساطتها أحياناً وحضور عنصر المبالغة فيها في أحيانٍ أخرى، مؤهّلة لهداية الإنسان في مسالكه اليومية ومعاملاته مع الآخرين. صحيح أن الكرْخي مثلاً قد جهر بـ "أخلص تخلُص" لتبيين الصلة الصحيحة فيما بين العبد وربه، لكنّ هذا المبدأ ذاته مؤهَّل لإرشاد الإنسان عندما يحاول تقويم صلته بإخوانه في المجتمع. وفي حكمة الرازي لمسْنا مبالغةً ينم عنها ادِّعاؤه أن جميع ما في الدنيا (من مكاسب مادية واجتماعية) لا يساوي -على كثرته- غمَّ ساعة مما يعانيه الإنسان الفرد حينما يفقد شيئاً أو يفوته شيء. لكننا نحدس في هذه الدعوى شيئاً من الحقيقة. ذلك أن ما يفقده الإنسان، أو يخفق في تحصيله لا يمكن -في كثير من الأحيان- أن يسترجعه بالاهتمام له ومعانقة التحسُّر عليه. الغم على المفقود أو الفائت يذهب سدى، ولا يُجدي نفعاً.

obeikan.com